﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾

[النحل: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَسَلُّطُ الشَّيطان على مَن يَتَوَلّاه لا على المُؤمِن المتوكِّل

في الآية السّابقة نَفى الله تعالى أن يكون للشَّيْطان سُلْطانٌ على نفوس المؤمنين الصّادقين، وفي هذه الآيةِ أثْبَت سبحانه أنَّ تَسَلُّط الشَّيْطانِ إنَّما هو على نفوس الضّالين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ؛ مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أيْ: يُقارِبُني[2]؛ والمَوْلَى: المُعتَقُ والحَليفُ والوليُّ؛ والمَوْلى أيضًا: ابنُ العَمِّ، والعمُّ، والأخُ، والابْنُ، والعَصَبات كلُّهم؛ والمَوْلَى كذلك: النّاصِرُ؛ والمَوْلَى: الَّذي يَلي عَلَيْك أمرَك[3]؛ والوليُّ: وليُّ النِّعَم؛ والموالاة: اتِّخاذُ المَوْلَى[4]؛ والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَوَلَّى) بنفسِه: اقتَضَى معنى الوَلايَةِ، وحصوله في أقرب المواضع؛ وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا: اقتضى معنى الإعراض وترْك قربه؛ فمِن الأوَّل قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثّاني قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63][5]، والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الموالي؛ أيْ: يَتَّخِذونَ الشَّيطان وليًّا لَهُم.

(1) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 8/ 234.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولي).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (ولي).
(4) الخليل، العين: (ولي).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/ 102.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تسلُّطُ الشَّيطان وتأثيرُه على الضّالين الفاسقين الَّذين يَتَوَلَّوْنَهُ

بعد أن نَفَى الله تعالى أن يكونَ للشَّيطان سُلطانٌ على نفوس المؤمنين الصّادقين، أثْبَت سبحانه أنَّ تَسَلُّطَ الشَّيطانِ إنَّما هو على نفوسِ الضّالين؛ فقال تعالى: إنَّما تَسَلُّطُ الشَّيطانِ واقِعٌ على الَّذينَ يتَّخِذونَه وليًّا لهم مِن دونِ الله تعالى، فيَتَّبِعونَه، ويُطيعونَه فيما يأمُرُهم به، وعلى الَّذين يُشرِكونَ باللهِ تعالى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستِئْناف في الآية:

الفَصْل لِشِبْه كمالِ الاتِّصال

فُصِلت جُملَةُ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ عَمّا قَبْلَها لشِبْه كمالِ الاتِّصال - الاسْتِئْنافُ البَيانيُّ - حيث جاءت جوابًا لسؤالٍ مُقَدَّرٍ، أثاره مَضْمونُ الجُملَةِ قَبْلَها تقديرُه: فعَلى مَن سُلْطانُه؟ فأُجيب: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾.

سِرُّ القَصْر بـ﴿إِنَّمَا﴾:

الَّذين يَستهويهم الشَّيطانُ، ويستولي عليهم، ويَحْتَلُّهم بِولايَتِه هُم مَن لا ولايةَ لَهُم مع الله

أوثر القَصْر بـ﴿إِنَّمَا﴾ هُنا لأنَّها تُستعمل في الأمر المعلوم الَّذي لا يجهله المُخاطَبُ ولا يُنْكره، والمُخاطَبون في الآيات مؤمنون موَحِّدون، والخبرُ الإلهيُّ حقيقةٌ دامغة لا مِراءَ فيها ولا جِدال؛ لأنَّها مِن الباري سبحانه خالقِ كُلِّ موجودٍ، العليم بِطِباع خَلْقِه.

وقد بَيَّنت الآيةُ الكريمة ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ مَن الَّذين يَسْتهويهم الشَّيطان، ويستولي عليهم، ويَحْتَلُّهم بِولايته: إنَّهم مَن لا ولايةَ له مع الله، وفي نفوسهم فراغٌ مِن سُلْطان اللهِ تعالى؛ وقد قُصِرَ سُلْطانُ الشَّيطانِ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾، أيْ: على الَّذين جعلوا ولايتَهم له، فاختاروا الهَوى على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 357، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 176، والشِّنْقيطيُّ، أضواء البيان: 2/ 444، وطنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 234.

الحَقِّ، والأوهامَ على الفعلِ، وكان سُلْطانُه بمعنى حُجَّتِه عليهم؛ لأنَّه أغواهم أوَّلًا بالأوْهام الضّالةِ والأهواءِ الجامحةِ المُغيرَة، فكانت حُجَّتُه الباطلةُ رائجةً عندهم[1].

والقَصْرُ في الآية قَصْرٌ إضافيٌّ "بقَرينَةِ المُقابَلَةِ؛ أيْ: بدون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فحَصَلَ بِهِ تأْكيدُ جُملَةِ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لزيادَةِ الاهْتمامِ بتَقْريرِ مَضْمونِها، فلا يُفْهَمُ مِنَ القَصْرِ أنَّهُ لا سُلْطانَ لَهُ على غَيْرِ هَذَيْنِ الفَريقَيْنِ، وهُمُ المُؤْمِنونَ الَّذينَ أهْمَلوا التَّوَكُّلَ، والَّذينَ انْخَدَعوا لِبَعْضِ وسْوَسَةِ الشَّيْطانِ"[2].

وأيضًا، ففي قَصْرِ سُلْطانِ اللَّعينِ على المَذْكورينَ غِبَّ نَفْيِهِ عَنِ المُؤْمِنينَ المُتَوكِّلينَ: "دَليلٌ على أنْ لا واسِطَةَ في الخارِجِ بَيْنَ التَّوَكُّلِ على اللَّهِ تَعالى، وبَيْنَ تَوَلِّي الشَّيْطانِ، وإنْ كانَ بَيْنَهُما واسِطَةٌ في المَفْهُومِ، وأنَّ مَن لَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ تَعالى يَنْتَظِمُ في سِلْكِ مَن يَتَوَلّى الشَّيْطانَ مِن حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ إذْ بِهِ يَتِمُّ التَّعْليلُ، فَفيهِ مُبالَغَةٌ في الحَمْلِ على التَّوَكُّلِ، والتَّحْذيرِ عَنْ مُقابِلِهِ"[3].

عِلَّةُ إضافةِ السُّلْطانِ إلى ضميرِ الشَّيْطانِ دونَ التَّصريح:

لا سُلْطانَ للشَّيطانِ بالقَسْرِ والإلْجاءِ

ألْمَحَ أبو السُّعود إلى عِلَّة إضافةِ السُّلْطانِ إلى ضميرِ الشَّيْطانِ دونَ التَّصريح بقوله: "﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾؛ أيْ: تَسَلُّطُهُ، وولايَتُهُ بدَعْوَتِه المُسْتَتْبَعَةِ لِلاسْتِجابَةِ، لا سُلْطانُهُ بالقَسْرِ والإلْجاءِ؛ فإنَّهُ مُنْتَفٍ عَنِ الفَريقَيْنِ لِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ حِكايَةً عَنْهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقَدْ أفْصَحَ عَنْه قَوْلُه تَعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾؛ أيْ: يَتَّخِذونَهُ وليًّا، ويَسْتَجيبونَ دَعْوَتَهُ، ويُطيعونَهُ، فإنَّهُ المَقْسورُ بِمَعْزِلٍ مِن ذَلِكَ"[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4268.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 279.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 400.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 400.

دلالةُ ﴿عَلَى﴾:

دَلَّ التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَى﴾ على استِعْلاء الشَّيطانِ، وتَمَكُّنه مِن أوليائِه، وسيطرتِه عليهم باتِّخاذهم إيّاه وليًّا مِن دون اللّهِ تعالى.

استِغْلاءُ الشَّيطان، وتَمَكُّنه مِن أوليائِه، وسيطرتُه عليهم

نُكْتَة التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾؛ لِتعليل الحُكْم في الآية بِسُلطان الشَّيطان وولايتِه على أتْباعه هؤلاء الَّذين يتَّخذونه وليًّا، ويُطيعونه في وساوِسِه، "وهُمُ المُلازمونَ لِلْمِلَلِ المُؤَسَّسَةِ عَلى ما يُخالِفُ الهَدْيَ الإلَهيَّ عَنْ رَغْبَةٍ فيها، ولا شَكَّ أنَّ الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ فريقُ غَيْرِ المُشْرِكينَ؛ لِأنَّ العَطْفَ يَقْتَضي بِظاهِرِهِ المُغايَرَةَ، وهم أصْنافٌ كَثيرَةٌ مِن أهْلِ الكِتابِ"[1].

تعليل الحُكْم بولاية الشَّيطان على أتْباعه

سرُّ التَّعبير عن التَّولِّي بالمضارع:

"معنى يتولّونهُ: يتّخِذونهُ وليًّا لهم؛ وعبّر بِالمُضارِعِ لِلدّلالةِ على تجدُّدِ التّولّي، أي: الّذين يُجدِّدون تولّيه؛ لِلتّنبيهِ على أنّهم كُلّما تولّوهُ بِالميلِ إلى طاعتِهِ تمكّن مِنهم سُلطانُهُ، وأنّهُ إذا انقطع التّولّي بِالإقلاعِ أوِ التّوبةِ انسلخ سُلطانُهُ عليهم"[2].

تَجَدُّد التَّولِّي مظِنَّة تَمَكُّن السُّلطان

دلالةُ بِناء فِعْل (التَّولِّي) على صيغة التَّفعُّل:

وبناءُ فِعْلِ (التَّولّي) على صيغة التَّفَعُّل يوحي باجتهاد أولياءِ الشَّيطانِ في سبيل موالاتِه ومَرْضاته وتَكَلُّفِهم في ذلك، وإصرارِهم عَليه بِتَجْديد ولايَتِه كُلَّ حين، وهؤلاء هُم عُصاةُ المُؤمنين والمُشركين، وأهْلُ الكِتاب الَّذين جَعلوا للّه شُركاءَ.

اجتهادُ أولياءِ الشَّيطانِ في سبيل موالاتِه ومَرْضاتِه

نُكْتة التَّعبير عن فِعْل التَّولِّي بالجَمع:

التَّعبير عن فِعْل التَّولّي بالجَمع ﴿يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ فيه إلْماحٌ إلى كَثْرة أولياءِ الشَّيطانِ الَّذين يخدعُهم بِتَزْيينِ المعاصي لَهُم، فيَقعون تحت تأثيرِ وسْوسَتِه وتَسَلُّطِه عليهم.

كَثْرةُ أولياء الشَّيطان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 279.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 279.

وَجْهُ إضافة فِعْل التَّولّي إلى ضمير الشَّيطان:

العُدول عن الإظهار جاء تَجَنُّبًا للالتباس

في إضافة فِعْل التَّولّي إلى ضمير الشَّيطان مراعاةٌ للإضافة إلى ضميره السّابقِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾؛ إذ لو عُدِل عن الإضْمارِ إلى الإظْهارِ، فقيل: إنَّما سلطانُه على الَّذين يتولَّون الشَّيطانَ، لَلْتَبَسَ المعنى واضطرب، وغَمُض مَرْجعُ الضَّمير في سُلطانه.

دلالةُ العطف بـ (الواو):

تَعْديد الَّذين يَتَولّاهم الشَّيطانُ بِوَسْوَسَته

الواو للعطف؛ إذ عَطفت جملةَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ بَعْدها على جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ الأولى؛ لتعديد الَّذين يَتولّاهم الشَّيطانُ بوَسْوَسَته وتأثيرِه وتَسَلُّطِه.

سرُّ تِكرار الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

ولايَةُ المُشركين لِلشَّيْطانِ أقْوى

إعادَةُ الاسْم المَوْصولِ في قَوْله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ لِأنَّ وِلايَة المُشركين لِلشَّيْطانِ أقْوى[1]؛ وفي تَكْريره أيضًا احْترازٌ عَنْ تَوَهُّم كَوْنِ الصِّلَة الثّانيَة حاليَّةً، مُفيدَةً لِعَدَمِ دُخولِ غَيْرِ المُشْركينَ مِن أوْلياء الشَّيْطان تَحْتَ سُلْطانه[2].

وَجْه التَّعبير بالضَّمير ﴿هُم﴾:

تأكيدُ شِرْكِهم

التَّعبير بالضمير المُنفصلِ ﴿هُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ توكيدٌ لشِرْكهم، و"توكيدٌ لتولّيهم له، فهم مَشركون بسَبَبِه أنْ اعتقدوا في الأحجار الوهميَّة، وهي لا تضرُّ، ولا تنفع بسَبَبِه، وأشركوهم مع الله بسبب تحكُّمه بأوهامِه فيهم"[3].

دَلالتا الباءِ وعَوْدِ الضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾:

الشَّيطان سَبَب الإشراك بالله

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ لِلسَّبَبيَّة، أيْ: صاروا مُشْرِكينَ بِسَببه، والضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾ الظّاهر عَوْدُه على الشَّيطان،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 279.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 230.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4268.

لِتتَّحد الضَّمائر؛ والمعنى: والَّذين هُم بِإشْراكِهم إبْليسَ مُشْركون باللّه؛ أي: مِن أجْل حَملِه إيّاهم على الشِّرك صاروا مُشركين[1]؛ أو الضَّميرُ المَجْرورُ ﴿بِهِۦ﴾ عائِدٌ عَلى ﴿رَبِّهِمْ﴾، والباء للتَّعدية[2].

نُكْتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على الخبر:

تَقْديم المَجْرور في ﴿بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾؛ لإفادَة القَصْر، أيْ: ما أشْرَكوا إلّا بِسَبَبِه؛ رَدًّا عَلَيْهِم، إذْ يَقولونَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: 148]، وقَوْلُهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النَّحل: 35]، وقَوْلُهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: 28][3].

ما أشركَ النّاس إلّا بنَزْغ الشَّيطان

سِرُّ التَّعبير بجملة الصِّلَة اسميَّةً:

جُعِلَت الصِّلةُ جُملةً اسْميَّة: ﴿هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾؛ لِدَلالَتِها عَلى الدَّوام والثَّبات؛ لأنَّ الإشْراكَ صِفَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ؛ إذ إنَّ قَرارَها القَلْبُ بِخِلافِ المَعاصي؛ لأنَّ مَظاهِرَها الجَوارِحُ، لِلْإشارَةِ إلى أنَّ سُلْطانَ الشَّيْطانِ عَلى المُشْرِكينَ أشَدُّ وأدْوَمُ؛ لأنَّ سَبَبَه ثابِتٌ ودائِمٌ[4].

الإشْراكُ صِفَةٌ مُسْتَمِرَّة؛ لِأنَّ قَرارَها القَلْبُ

سِرُّ تقديمِ تولّي الشَّيطانِ على الإشراك به:

تَقْديمُ الصِّلة الأولى - أي: تولّي الشَّيطان - عَلى الثّانيَة، أي الإشراك به، الَّتي هي بِمُقابَلَةِ الصِّلَةِ الأولى في الآية السابقة: لِرِعايَةِ المُقارَنَة بَيْنَها وبَيْنَ ما يُقابِلُها مِنَ التَّوَكُّل عَلى اللّه تَعالى؛ ولَوْ روعيَ التَّرْتيبُ السّابِقُ؛ لانْفَصَلَ كُلٌّ مِنَ القَرينَتَيْن عَمّا يُقابِلُها، وَأيضًا، لمّا كانَ كُلٌّ مِنَ الإيمانِ والتَّوَلّي مَنشأً لِما بَعْدَهُ: قُدِّمَ عَلَيْهِ[5].

التَّقديمُ والتَّأخيرُ لِرِعايَةِ المُقارَنَة، ولِلإشارة إلى أنّ المقدَّم مَنشأٌ للمُؤخَّر

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 12/ 156.
(2) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 2/ 305، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المَصون: 7/ 286.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 280.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 280.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 230.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»